

الحركة الأدبية في الجزائر إبان العهد العثماني

الباحثة: خالدي ربحة
جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

مقدمة:

لقد تحدث الكثير من الباحثين عن حالة الأدب العربي في العصر العثماني، وقد وصفوه بالانحطاط والتكلف، كما بينوا أنه لا أثر للحياة فيه، وأنه لا يستحق البحث والدرس والتنقيب؛ فلا يستحق في رأيهم أن يُطلق عليه اسم الأدب، ولم يظهر من الشعراء من يستحق اسم الشاعر، كما وصفوه أنه كان أدباً منحطاً متكلفاً. لكننا إذا قمنا في البحث في مظانه، والتنقيب عليه في دواوين شعراء هذا العصر، والآثار الأدبية لهم من كتب أدبية ومخطوطات ووثائق، أو جمع ما تناثر منها هنا أو هناك، لوجدنا عكس ما قيل عن هذا العصر ولاستخرجنا من الموضوعات والدراسات عددا لا يحصى، وفي هذه الحالة نستطيع أن نقول عنه أدب ويستحق بذلك الدراسة على عكس ما قيل فيه.

إن المتتبع للفترة العثمانية بالجزائر، يجد قلة الكتابات التاريخية المحلية المتعلقة بهذه الفترة، رغم طول مدتها وغناها بالأحداث التاريخية والسياسية الهامة فيقول فارس كعوان: " في اعتقادنا أن ذلك يرجع إلى عدد من العوامل أبرزها قلة الاهتمام بالتاريخ من كتاب ذلك العصر وعدم اعتناء غالبية الحكام الأتراك بتشجيع الكتاب على التدوين التاريخي."⁽¹⁾ وهذا ما أكدته الورثاني، ويعود هذا إما لكون غالبيتهم ممن لا يفهمون العربية أو لكونهم من العسكر وبالتالي فهم لا يقدرون قيمة الكتابات التاريخية. فقد انصب اهتمامهم على الحياة السياسية والعسكرية مما انعكس على الواقع الثقافي والأدبي. وهذا ما جعل الكتاب يطلقون على هذا العصر بالضعف والركاكة.

إن التعرف على تاريخ الأدب الجزائري وتكوين فكرة صحيحة عن ماضي الجزائر الثقافي في العهد العثماني مرتبط برسم صورة واضحة للحياة الثقافية عامة إبان هذا العهد، ولمعرفة سير الحركة الثقافية والنشاط العقلي بالجزائر وجب أن ننظر فيما كنبه المعاصرون لهذه الفترة من الزمن من مختلف

الكتاب على اختلاف مللهم وهذا حتى نستطيع أن نقدم حقائق ثابتة من واقع العصر ذاته، ومن المعاصرين لهذه الفترة العلامة أبي راس الناصري والذي يقول في رحلته "فتح الإله" فيتحدث عن رقي العلم والأدب في الجزائر، حيث ذكر بعض العلماء والمشائخ خاصة الذين تتلمذ على أيديهم أو حضر مجالسهم منهم الشيخ الحاج علي بن الأمير مفتي المالكية بالجزائر وخطيبها والحاج بن محمد الشاهد واحمد ابن عمار الذي كان في زمنه متوليا الخطابة والفتوى والامامة ومحمد الصادق ابن أفغول هذا الأخير الذي كان يشد الرحال إليه من حوالي زواوة وغريس فكان للعلوم جامعا وفي فنونها بارعا. هذا وقد أشار لكل واحد منهم ببعض الأخبار. وقد يذكر بعض الشعر لهم أو المؤلفات التي قدموها للأدب الجزائري والعربي.⁽²⁾ وهذا يعني بوجود عدد معتبر من العلماء الذين نبغوا في مختلف العلوم كالفقه والأدب والدراسات الدينية والتصوف وعلم الكلام والطب والفلسفة وغيرها من العلوم، غير أن جل من نبغ جمع بين الفقه والتصوف، أو في الأدب بين الكتابة والشعر. والحديث عن الثقافة لا بد أن نتناوله من حيث مدلوله الخاص إذ يميز محمد بن عبد الكريم نوعين من الثقافة في هذه الفترة هما الحركة الأدبية والعلمية، فمقصود بالعلمية هو العلم أو التعليم، فالثقافة العلمية بالجزائر تميزت بالطابع الإسلامي⁽³⁾ حيث لعبت الزوايا دورا أساسيا في نشر الثقافة في الأرياف والمدن فاوجدت بذلك توازنا بين الريف والمدينة، حيث كانت تركز على العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هي المساجد والتي كانت تؤدي دورا تعليميا من جهة ودورا تعديدا من جهة أخرى، كما كانت الزوايا تقوم بنفس الدور إلى جانب الكتاتيب التي كانت تمثل المرحلة التعليمية الابتدائية (الأولية) يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة وحفظ القرآن والأحاديث النبوية كما قام الأهالي بتعليم أطفالهم العلوم المعروفة في مختلف أنحاء البلاد الجزائرية وبنوا لذلك الكتاتيب والمدارس

وغيرها من المراكز العلمية، وركزوا خاصة على تحفيظ القرآن الكريم وتفسيره وقراءته⁽⁴⁾، حيث كانت تعد هذه المراكز بحق مراكز الإشعاع الفكري والعلمي.

وهناك علماء جمعوا بين الفقه الأدب وعلى رأس هؤلاء المفتي "أحمد ابن عمار الجزائري الذي عاش في القرن الثاني للهجرة (18 م)، وهو عصر شهد حركة علمية نشيطة في الجزائر شارك فيها أمثال ابن ميمون وعبد الرزاق بن حمادوش والشاعر المفتي ابن علي ومحمد أبو راس الناصر، وعبد القادر الراشدي، وغيرهم، وقد تولى ابن عمار فتوى المذهب المالكي من سنة 1180 إلى 1184، ذلك أن ابن عمار قد تفرغ بعد ذلك للتدريس والتأليف والرحلة"⁽⁵⁾

ونجد كذلك من الأنواع الأدبية التي انتشرت في هذه الفترة "أدب الرحلة" الذي كان الأكثر شيوعا بفضل الرحلات التي قام بها علماء هذه الفترة ورغم أن الحياة السياسية والاقتصادية كانت مضطربة فهذا لم يمنع ابن علي وابن عمار وابن ميمون في قول الشعر، "فكان شعرا في جملته يعبر عن متانة ثقافة هؤلاء الشعراء وتمكنهم من البيان العربي والنوق الفني والثقافة الإسلامية الأدبية وإن التمتع في شعرهم يجد آثار المدرسة الأندلسية بارزة. فالوشحات، ووصف الرياض والطبيعة ورقة الألفاظ وبعد الأخيالة..."⁽⁶⁾ وبهذا تعتبر شخصية هؤلاء مفخرة للتراث الجزائري العربي فوجب علينا كدارسين وطلاب استرجاع التراث الثقافي والحضاري الجزائري والحفاظ عليه والتدقيق منه والعمل به وعليه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وذلك بكتابة السير العلمية وجمع النصوص على اختلافها لأعلام العلماء والأدباء الذين صنعوا مجد هذا الوطن.

ويحتوي العهد العثماني في الجزائر (1520-1830) على رصيد هام من هذه الرحلات، حيث أصبح الجزائريون أكثر ميلا إلى الترحال والتجوال مشرقا ومغربا داخل الجزائر وخارجها، ومهما حاولنا حصر أسماء هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، فإن ذلك يعتبر محاولة يائسة، ويعود ذلك إلى كثرتهم وسكوت المصادر عن ذكر أسماء الكثير منهم، كما أن العديد من الرحلات قد ضاعت ولم يعثر لها على أثر. إلا أن كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تركت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء، ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء لرحالة استطاعوا أن يدونوا رحلاتهم، التي أصبحت اليوم من أهم المصادر لكتابة التاريخ في الفترة العثمانية⁽⁷⁾ ومن هذه الرحلات في الفترة المدروسة نذكر: رحلة ابن عمار "نحلة اللبيب

في أخبار الرحلة إلى الحبيب"، ورحلة الورثاني "زهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ورحلة الغبريني ورحلة ابن حمادوش عبد الرزاق "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" وغيرها من الرحلات.

ولم يقف شعراء العصر العثماني عند هذا الحد، بل نظموا قصائدهم حتى باللهجة العامية بهدف إيصال هذه الأعمال الأدبية إلى العامة والناس جميعا وهذا للتعبير عن إعجابهم بشخصية ممدوحهم وتقديرهم لهم فمن ذلك ما فعله لخضر بن خلوف في ديوانه الذي مدح فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - و ذكر خصاله و فضائله:

أحسن ما يقال عندي بسم الله وربك نبدا

حك بك في سلطان جسدي ما عرك باغي واحدا⁽⁸⁾

فهذا التراث الذي هو في الواقع المادة الخام والمصدر الأساسي لتاريخ الجزائر خاصة في الفترة العثمانية التي اهتمت بالتكليف والجمود.

أولا: الشعر الجزائري القديم في الجزائر:

إن أغلب دواوين الشعراء الجزائريين التي تعود العهد العثماني ما تزال في طي الكتمان، إلا أنها لم تنشر أو عبارة عن مخطوطات لم يتم تحقيقها وكذلك نجد مبعثرة هنا وهناك سواء في المكتبات الجزائرية، أو خارج الجزائر كتونس والمغرب وتركيا وغيرها من البلدان العربية والمشرقية، ومن هؤلاء الشعراء المنداسي وابن علي وابن عمار والمقري والمناجلاتي وابن سحنون وابن الشاهد وأمثالهم ممن عاشوا في العصر العثماني، فكل ما نجده عن بعض الشعراء سوى بعض الأبيات المتفرقة بين المصادر والمراجع سواء كانت تاريخية أو فقهية أو مخطوطات متفرقة في المكتبات العامة والخاصة، وهذا الإهمال للشعر وأهله، يؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون "من أن أهل المغرب العربي قد أضاعوا رواية أشعارهم وأخبارهم فأضاعوا أنسابهم وأحسابهم"⁽⁹⁾ وهذا الرأي حقز العديد من الشعراء على تدوين الشعر والاهتمام به ومن هؤلاء أحمد ابن سحنون في كتابه "الأزهار الشقيقة"، وأبو راس الناصر في "الدرة لأنيقة"، كما رواه عبد الرحمن الجامعي المغربي على رجز المفتي محمد الحفناوي التلمساني في فتح وهران. ثم وقد تحدث ابن حمادوش أن له ديوانا بناه على الغزل والنسيب والمرائي ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وله أغراض أخرى كالنسيب والحنين إلى الوطن والأهل والوصف ومدح الأمراء وغير ذلك، كما ضم كل من "نفع الطيب" و

لقد سعت محاولات نقدية كثيرة إلى دراسة الشعر العربي بعامة والجزائري بخاصة قديمة وحديثة، وتباينت مناهجها، واختلفت طرائقها، وتعددت دعواها وتفاوتت اجتهاداتها وهذا كله يعود بالخير على الثقافة الأدبية، لأنها حصدت غنائم هذه البحوث والجهود، ومازال هذا المتن يحتاج إلى دراسات كثيرة لكي تقف على جوانبه المختلفة، فهناك دراسات انكبت على انجاز تاريخ للأدب الجزائري بعامة والشعري بخاصة⁽¹³⁾.

وهذا ما يلفت انتباه الباحثين فيوجهون جهودهم بمدارستها والبحث عن أبعادها ضمن رؤية منهجية صارمة لنتج في النهاية كتابة نقدية للتاريخ الثقافي العام ليس على أنه ذاكرة جماعية فقط؛ وهذا للاستفادة من أدبنا الجزائري القديم والتشبع بالتراث الجزائري الذي تعرض للأهوال الهائلة؛ التي جعلته عرضة للتشتيت والتوزيع؛ يأخذ منه من شاء فنجد اليوم أطرافا في مكنتات المغرب، وتونس، وإسبانيا، وفرنسا، وتركيا، وسوريا، وغيرها من الأقطار التي لاقت علاقات بينها وبين الجزائر، وإما عن طريق الجزائريين الذين تنقلوا إلى هذه الأقطار، فوجدوا عددا غير قليل من الكتب المخطوطة والمحقة من طرف أساتذة جزائريين نكن لهم كل التقدير، ونوّه بجهودهم العظيمة التي بذلوا في خدمة الأدب⁽¹⁴⁾.

ويقتضي على الباحث الاطلاع المستفيض على ما طبع من مصادر وما لم يطبع وضمن ما هو مغمور في المكتبات العامة والخاصة الداخلية منها والخارجية التي لم نتعرف عليها إلى يومنا هذا.

ثانيا - نماذج لشعراء جزائريين في العهد العثماني:

1- أحمد ابن عمار الجزائري : عاش ابن عمار في القرن الثاني عشر للهجري (18م)، هو عصر شهد حركة علمية نشيطة في الجزائر، تولى ابن عمار فتوى المذهب المالكي من سنة 1180 إلى 1184 وجلس للتدريس بالجامع الكبير بالعاصمة وانتصب للخطابة والإمامة بحكم وظيفته، ثم تفرغ بعد الفتوى للتدريس والأدب والرحلة .

تنقل ابن عمار في تونس والمشرق العربي عدة مرات؛ فقد حج 1166 وجاور بالحرمين الشريفين حوالي اثني عشرة سنة وأقام بمصر فترة، كما ذهب إلى تونس ليستقر فيها سنة 1195 وأخذ العلم كعادة علماء وقته خلال الجولات التي قام بها على مشائخ جلة من المشرق والمغرب العربي، كما تخرج على يديه تلاميذ كثيرون منهم "محمد أبو راس الناصر من الجزائر، وأحمد

أزهار الرياض " كمية من الأشعار للمقري، فقد كان له أيضا كاشا يحمل اسمه " يضم أدبا أندلسيا وغيره "، ولسعيد المنداسي مجموعة قصائد في أغراض مختلفة ما تزال مخطوطة، وينسب إلى سليمان ابن علي التلمساني ديوان مازلنا لا نعرف محتواه، ولكنه ما يزال مخطوطا في إيران. وقد ذكر ابن زاكور المغربي أن لمحمد بن عبد المؤمن الجزائري ديوان شعر ورسائل، وتضم دواوين "ابن علي مفتي الجزائر الحنفي شعر كثير في الجهاد ضد الأسبان وانتصار بكداش عليهم وفتح لوهرة سنة 1119هـ/1708م وقد قيلت أشعار كثيرة في هذا الفتح كلها مسجلة في كتاب "التحفة المرضية" لابن ميمون⁽¹⁰⁾. ولابن عمار والمنجلاقي وابن سحنون أشعارا كثيرة في مختلف الأغراض أهمها المدح والوصف والغزل والمدائح النبوية، وفي كتاب "منشور الهداية " لعبد الكريم الفكون و" البستان " لابن مريم أخبار عن شعراء تلمسان وقسنطينة عرفوا بمجودة الشعر وكثرته لا نعرف عنه شيئا⁽¹¹⁾.

وكان لهذا المنتوج الشعري المعتبر في هذه الفترة بواعث في أغلب المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية وحتى الطبيعية، فقد أثرت على الشعراء فأنتجوا ما أنتجوه من أشعار وقصائد عاجلت مختلف الأغراض الشعرية، منها المدح والوصف والغزل والهجاء والتشبيب وغيرها من الأغراض المعروفة، ومن خلال تأثر الشعراء بالمدرسة الأندلسية التي عرفت ظهور نموذج جديد للقصيد العربية وهي الموشحات الأندلسية، وهذا النوع كان ضمن أعمال الشعراء الجزائريين فقد كتب في هذا النوع كل من ابن عمار وابن علي وأحمد المنجلاقي وابن الشاهد وغيرهم من الشعراء الذين برعوا في قرض الشعر، كما نوعوا الشعراء بين الشعر الفصيح وبين الشعر الملحون الذي أقدم عليه العديد من الشعراء وهذا بهدف إيصاله إلى عامة الناس، وهذا ما يظهر لنا ان مختلف أعمار الناس كانوا يتذوقون الشعر، وهذا ما شهد به العديد من الكتاب والعلماء منهم محمد توفيق المدني الذي قال: "ولقد كان الجزائريون طيلة مدة الجمهورية الجزائرية العثمانية، يتبارون أتراكا وعربانا في أعمال الخير، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد والمدارس والمنشآت العامة، وكانت دور العلم عامرة، وحلقات الدروس خاصة بالطلاب في كل مساجد المدن الكبرى، أما التعلين الابتدائي فكان يلقي في لثة آلاف "كتاب" أو مدرسة ابتدائية"⁽¹²⁾.

سنة وفاته ومكانها، فبعض الروايات تذهب إلى أن وفاته كانت سنة 1088هـ بسجلامة وبها دفن، وبعضها الآخر تذهب إلى أن وفاته كانت في أواسط القرن الثاني عشر الهجري بتلمسان وبها دفن.

أما آثار المنداسي، فلا نعرف له منها اليوم إلا الشعر الفصيح منه والملحون، فديوانه الفصيح قد حققه ونشره المرحوم راجح بونار في الجزائر سنة 1976م وهو تحقيق مازال في حاجة إلى تدقيق، خصوصا في القصيدة اللامية "أرذاذ المزن من عيني نزل"، التي تنسب كذلك إلى الحوضي، وديوانه الملحون قد حققه ونشره الأستاذ محمد بكوشة في الجزائر سنة 1968م.

تعد قصيدة المنداسي المسماة باسم العقيدة من أشهر شعره الملحون، وقد قيل إن سلطان المغرب المولى إسماعيل قد أعطاه مثقالها ذهبا، وقد تجاوزت العقيدة الثلاث مائة بيت، وقد خصها محمد أبو راس بسبعة شروح، كما ذكر في فتح الإله، الأول سماه (الدرة الأنيقة في شرح العقيدة) والثاني سماه (طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي)، والخامس سماه (الحلة السعدية في شرح قصيدة السعدية)، والسادس سماه (الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان)، والسابع سماه (نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والنسب والتشبيب).⁽¹⁸⁾

ثم قال: "فليعتبر الذي من أهلها، وقال من مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثلها، فهي سبعة شروح"⁽¹⁹⁾، ولم نجد ذكرا في الكتاب الثاني والثالث، وباستثناء هذه الشروح التي مازالت مخطوطة.

3- محمد بن أحمد الحلقاوي التلمساني، كان حيا سنة 1122هـ، من فقهاء أهل تلمسان وأدبائها، وله اشتغال بالتاريخ من أهم آثاره المعروفة حتى الآن "أرجوزة" في فتح مدينة وهران الفتح الأول سنة 1119هـ / 1708م على عهد الداوي محمد بكداش وصهره أوزن حسن، وقد قتلها الداوي دالي إبراهيم بعد ذلك سنة 1122م.

تحتوي الأرجوزة على اثنين وسبعين بيتا، وكانت من بين الأشعار التي أثبتها ابن ميمون في التحفة المرضية في الدولة البكداشية، وأشار إلى أن ناظمها هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الحلقاوي مفتي تلمسان، كما أشار إلى الشرح الذي عمله عليها أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي، وقد ذكر محقق التحفة محمد بن عبد الكريم، عند تعليقه عليها أنه يملك من الشرح نسخة خطية.

الغزال من المغرب، وإبراهيم السيلية من تونس، ومحمد خليل المرادي من الشام، وعمر بن عبد الكريم من مكة وغيرهم⁽¹⁵⁾، وقد برع ابن عمار في الأدب فكان نسيج وحده في عصره يعرف أسلوبه محما تخفى، وهو الأسلوب الجزل الجذاب المسجوع بدون تكلف، واشتهر ابن عمار أيضا في الحديث الشريف وروايته.

ألف ابن عمار مجموعة من الكتب والرسائل، وديوان شعر ضاع الكثير منه ومن مؤلفاته: "لواء النصر في فضلاء العصر" والذي مازال مفقودا ليومنا هذا، ورحلته المسماة بـ"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" والتي وجدت منها فقط نبذة من مقدمتها و"تاريخ في سيرة علي باشا"، باي تونس وأيضا "رسالة في مسألة وقف" ورسالة في وصف قصر عبد اللطيف مع قصيدة طويلة في نفس المعنى. وحاشية علي الحفاجي إضافة إلى ديوان شعر إلى غير ذلك من الأعمال⁽¹⁶⁾.

2- أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي الأصل التلمساني المنشأ والدار المتوفى على الأرجح سنة 1088هـ، تعلم علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة، والعلوم الشرعية والعقلية، كالقرآن الكريم والحديث الشريف وعلم الكلام بتلمسان العاصمة الثقافية لغرب البلاد، وفيها شرب من مشارب الجو الصوفي الذي كان يطبع الحياة الثقافية بطابعه الخاص.

الأحداث الدامية التي توالى على تلمسان، والتي كانت محل نزاع بين العثمانيين في الجزائر من جهة والزبانيين الذين استجدوا بالعلويين في المغرب من جهة أخرى، لم تساعد المنداسي على الاستقرار وفي المدينة، ففضل الهجرة إلى المغرب خصوصا وأنه كان شاهد عيان لمذبحة عنيفة هجم فيها الأتراك على بعض الأعيان ففككوا بهم، وهدموا دورهم، وسبوا نساءهم وأبنائهم، بعد أن أفتى لهم بذلك الفقيه ابن زاغو، فتأثر المنداسي من بشاعة المجزرة، وهرب بجده إلى المغرب وكان ذلك على عهد عثمان باشا.

وفي ديوان المنداسي قصيدة نونية وصف فيها تلك المذبحة وأفاض فيها عما فعلته يد البطش التركي في أعيان تلمسان وعلمائها وشيبتها وشيبيها، وعرض فيها بالمفتي ابن زاغو الذي أفتى بإباحة دم المسلمين للأتراك، ونعته فيها بأفدع الأوصاف، وصوره في أبشع الصور، ودعا فيها أهل البلد ضمنا وعلنا للثورة على الظلمة وظلمهم، وسمى قصيدته هذه باسم "الأعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك بتلمسان والجزائر"⁽¹⁷⁾ وظل الشوق والحنين بشدة إلى موطنه تلمسان، إلى أن وافته المنية، قد اختلف في

كما نذكر الشاعر العالم محمد آل قوجيل من خلال شعره الذي تضمن بحثاً على الجهاد ضد الأسبان في وهران والجهاد بصفة عامة، ونذكر له هذه القصيدة التي اخترنا منها هذه الأبيات:

فرحت جزائرياً بكم وناست بمقامكم فيها بحال حبور
ولتلفت نحو الجهاد بقوة والكفر اقطع أصله بذكر
حجز جيوشاً كالأسود وسرحن تلك الجوّاري في عباب بحور⁽²⁰⁾

4- أبو العباس أحمد المنجلاقي المتوفي في القرن الحادي عشر الهجري، ينتسب إلى بلدة منجلات الواقعة في القبائل الكبرى وحاضرتها بجاية، وهي البلدة التي ينتسب إليها عدد من الأعلام الذين خدموا الثقافة الدينية والأدبية والعلمية في الجزائر، منهم أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاقي المتوفي سنة 690هـ، ذكره الغبريني في عنوان الدراية، وكان متعاصرين وقال عنه: "من اصحابنا الذين جمعنا معهم عصر واحد، له معرفة بالفقه وأصول الفقه، قرأ ببجاية، ورحل إلى تونس في طلب العلم، ثم عاد وأقرأ الناس ونفعهم بفتاويه، فظهر أمره واشتهر"⁽²¹⁾، ومنهم علي بن عثمان المنجلاقي، الذي زاحم بعلمه علماء بجاية وفقهاءها، وتولى الإفتاء بها، وذكر عبد الرحمن النعالي أنه كان من بين من قرأ على يديه، إذ قال: "شيخنا أبو الحسن الإمام الحافظ، وعليه كانت عمدة قراءتي ببجاية"⁽²²⁾. ونذكر أيضاً عمر بن محمد بن عبد الرحمن المنجلاقي أبو حفص، وهو فقيه، كبير أصولي، منطقي، شارك في الكثير من العلوم، من أهل بجاية، حيث انتقل منها بعد سقوطها إلى مدينة الجزائر، فكان من كبار علمائها، رحل إلى المغرب وأخذ عنه، تحدث عنه ابن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/1708م) في رحلته المسماة بـ"نشر أزاهير البستان"⁽²³⁾، حيث أثني عليه وقال: "أجازني بالجزائر وتطوان"⁽²⁴⁾، فأشاد به في قصيدة ومدحه فيها بعلمه وورعه وسبقها بهذه المقدمة: "العالم الأشهر، والحبر الأكبر، حائز الشرفين: العرضي والذاني أبو حفص عمر بن عبد الرحمن المانجلاتي، هو بقية السلف، وبركة الخلف، الذي حمى الله به ذلك القطر من التلف"⁽²⁵⁾، توفي بمدينة الجزائر سنة 1104هـ⁽²⁶⁾.

وأما أحمد المنجلاقي - الذي نحن بصدد الحديث عنه - فهو من أعلام القرن الحادي عشر، وكان قريباً من الفترة التي عاش فيها كل من سيدي ابن علي، والشيخ أحمد ابن عمار الذي عرف به وبنهجه في الشعر في رحلته، ولم يشر ابن عمار - الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري - في حديثه عنه

إشارة تنفيده بالتقائه به، بل تحدث عنه حديث من مضوا، ولم يذكر لا تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، ولكن يفهم من حديثه عنه، أنه ترك لهم طريقة في المديح النبوي، اتبعه فيها هو وابن علي وابن الشاهد وأمثالهم.

سطع نجم أحمد المنجلاقي في مجال القريض أكثر منه في مجال من مجالات المعرفة، فقد كان من عشاق الشبائل الحمدية، وقد أشاد به أحمد ابن عمار، واعتبره من الشعراء القلائل في الجزائر، في ذلك العهد ممن برع في شعر المديح النبوي، الذي ينظر فيه الشاعر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة روحانية صوفية، ولا يقصر في شعره على سرد السيرة النبوية الواقعية في الحياة، وقد جعله ابن عمار في هذه الصناعة الأدبية، ثالث اثنين، هما البوصيري وابن فارض، وذلك في قوله: "والشعر القريض عندنا في هذا الغرض، ما أنزله وأقله، وفي هذا العصر والذي قبله، ومجلى هذه الحلبة، ومقدم الجماعة، ونائل الجعبة، وإمام الصناعة، ...، ومثلث طريقتي البوصيري وابن الفارض والشيخ أبو العباس سيدي أحمد المنجلاقي"⁽²⁷⁾.

ذكر ابن عمار - في رحلته - أن لأحمد المنجلاقي ديوان شعر كامل في المدائح النبوية، صب فيه الشاعر كل مشاعره ومعارفه وتعلقه وعشقه للشبائل الحمدية الروحانية الخالصة، وذلك على عادة الصوفية الذين يذهبون في اعتقادهم إلى أنه قديم بوصفه حقيقة، وحديث بوصفه إنساناً، ولذلك فهو عندهم "عين الوجود" ومن نوره الحمدي اثبت كل موجود، ومما جاء في إشارته قوله: "وهذا الرجل الصالح من عشاق الشبائل الحمدية المشرفة العاطرة الندية، وله ديوان قصائد مولدية، تزرى بالأزهار الندية"⁽²⁸⁾.

غير أن هذا الديوان المولدي، مازال مع كثير غيره إلى اليوم في طي النسيان والكتان والضياغ، ولم ينبج منه إلا بعض القصائد التي نقلها عنه ابن عمار في رحلته، منها سمطية عدتها نحو ثمانين بيتاً مطلعها: الركب نحو الحبيب قد سار، ومنها موشح احتفى فيه المنجلاقي بمعاني الحب الإلهي، ووحدة الوجود والحقيقة الحمدية، مطلعها: "بالله حادي القطار / قف لي بتلك الديار / وافر السلام". تعد هذه الشخصية من أبرز الشخصيات التي برعت في قرض الشعر خاصة المديح النبوي وهو بذلك يحتاج إلى عناية ودراسة دقيقة تبرز معالم هذه الشخصية وتدقق النظر في آثارها التي لم تصل إلينا سوى بعض التفتات من هنا وهناك.

5- **الحسين بن محمد السعيد الورثاني**، المولود سنة 1125هـ والمتوفي سنة 1193هـ، وهو واحد من أعلام الجزائر المشهورين في العهد العثماني، في القرن الثامن عشر ميلادي بتأليفهم القيمة التي خلدت ذكرهم بعد ذهابهم، مثلما مثلوا خلدوا فيها عصرهم الذي عاشوا فيه، ونقلوا إلى الخلف حاضرهم، وما كان سيرد فيه من سياسة واجتماع وثقافة، أمثال ابن عمار وابن ميمون وابن سحنون وابن علي وأبو راس الناصري وأمثالهم.

والورثاني الذي اهتم في جانب من رحلته برحلات عصره ومناقبهم، لم يفته أن يعرف بنفسه وبنسبه وبعض مؤلفاته، فقد ذكر فيها أنه هو: (الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف هذا من شرفاء تافيلالت، وأما مقره ومقره أوائله فني بجاية، وذكر أن جده السابق ذكره هو نجل الشيخ البكاي الذي كانت له زاوية عظيمة، خاصة بالطلبة، وأنه كان صاحب مقام رفيع في العلم، ومن أصحاب الكرامات حيث أصبح الناس ينظرون إليه نظرة احترام وإجلال).⁽²⁹⁾

في عرش بني ورثلان، غير بعيد عن بجاية، كان مولد الحسين الورثاني، وبه كانت وفاته، وقبره اليوم مشهور مزار، يوجد بقرية "آنو" وبها مسجد يسمى باسمه، تقام فيه الصلاة، وتلقى الدروس على الطلبة القاصدين من أطراف البلاد تلقى الورثاني تعليمه في أحضان أسرته، حفظ القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات الدروس التي كانت تقام في زاوية الأسرة، إذ أخذ عن والده، ومشايخ وقته منهم: يحيى حمودي، ويحيى عيسى وبلقاسم بن علي وغيرهم ممن تنقل هو إليهم مثل الشيخ أحمد زروق، الذي ذكر الورثاني أنه زاره وأخذ عنه، وتقرب إليه بقصيدة مدحه بها .

ذكر أبو القاسم سعد الله في كتابيه تاريخ الجزائر الثقافي وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أن الشيخ الورثاني قد حج ثلاث مرات على الأقل، الأولى كانت سنة 1153هـ، والثانية سنة 1166هـ، والثالثة سنة 1179هـ، حيث كان يورد أخبار الدول التي زارها في طريقه كما التقى أثناء هذه الحجات بعدد من المشايخ، حيث ذكرهم في رحلته، ولكن صلتته توطدت ببعض علماء الأزهر الشريف الذين حضر دروسهم، والذين كان منهم؛ الشيخ محمد بن سالم الحفناوي، والشيخ، والشيخ علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي، وغيرهم من فقهاء المالكية بالأزهر الذين عمق الورثاني معارفه الفقهية على أيديهم فعرف بهم ويعلمهم .

خلف الشيخ الورثاني مؤلفات عديدة، أشهرها وأكثرها قيمة رحلته المسماة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، والتي حققها الأستاذ محمد بن أبي شنب ونشرها في الجزائر سنة 1908، وهي الرحلة التي أملى فيها الورثاني مشاهداته وملاحظاته ولقاءاته التي دونها أثناء رحلاته الداخلية في أطراف البلاد التي مر بها كتونس وطرابلس الغرب وغيرها، فجاءت الرحلة بذلك طائفة بطرائف الأخبار، ولطائف الآداب، وتراجم مشاهير الرجال والأقطاب.

وأما مؤلفاته الأخرى، فما زالت في مجملها مخطوطة، ولا نعرف عنها غير عناوينها حتى الآن منها شرح على المنظومة القدسية لعبد الرحمن الأخضر، وحاشية علي السكتاني وكتاب المرادي، وقصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في نحو خمس مائة بيت، وشرح على خطبة الصغرى للسنوسي، ورسالة في حل اللغز الذي أرسله أحمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه، وغيرها مما جاء مذكورا في مقدمة رحلة الورثاني ومتنها، أو ما أحصاه وذكره الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف، ومحمد بن ميمون الجزائري فسي التحفة المرضية، وأبو القاسم سعد الله في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ويوسف قوقام في مقاله المنشور بمجلة الثقافة، العدد: 35.

وشعراء الجزائر في الواقع، إن أعلام الجزائر في عهدها العثماني لا يمكن أن نقف عند كل واحد منهم بالتفصيل، لطول قائمتهم، وكذلك لتنوع أعمالهم واختلافها من عالم لآخر، ونكتفي بالإشارة إلى هؤلاء ونذكر منهم **محمد بن عبد الرحمن القشوطي المدرسي** الحسن الأزهري (ت 1208هـ - 1794م)، عرف بتصوفه متخذا من الطريقة الخلوتية منها فأسس زاوية بها لنشر الطريقة الخلوتية، التي تعود جذورها إلى القرن العاشر الهجري، وله جملة من الوصايا والإجازات، وقد أشار أبو القاسم الحفناوي أكبر رجال الطريقة الرحمانية، إلى تلك الرسائل المخطوطة، ولو طبعت يقول: لكانت مجلدا كبيرا الحجم كثير العلم، وله قصيدة وحيدة، من نحو خمسة وثلاثين بيتا، تصور جانبا من جوانب الشوق والمحبة، قالها في محبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إيمانا منه أن محبة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام هي من محبة الله، ومحبة الله من محبة نبيه، وقد جعل لها عنوانا يتضمن هذه المحبة، فضلا عما جاء في أبياتها، وهو: " تحريك الساكن، وتهيج الشوق الكامن، في زيارة طيبة ومن بها ساكن ".⁽³⁰⁾ كما نذكر **محمد بن علي بهلول المجاجي** (ت 1002)، الذي اشتهر "بالصلاح

العمل على نشر الوثائق النادرة، وخاصة التي يصعب الحصول عليها، وعدم إهمال ما أنجز من الأعمال التاريخية التقليدية. وهذه التوجيهات يفتح الباب للباحثين والدارسين للقيام بأعمال مختلفة وجديدة تؤرخ لتاريخ الجزائر العثمانية علميا وموضوعيا وتحليليا ينير ظلمة هذا العهد فيضاف إلى الموروث الثقافي الجزائري خاصة والعربي عامة.

خالد ربح

الإحالات :

- 1- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، من تقييدات ابن المفتي حول باشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كوان، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2009، ص 6.
- 2- محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومثته في التحدث بفضل ربي ونعمته - حياة أبي راس النائية والعلمية-، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت، ص 41.
- 3- أنظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دط، 1964، ج3، ص317.
- 4- أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الرب الاسلامي، بيروت، 1989، ط1، ج2، ص193.
- 5- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983، ص63.
- 6- أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1988، ص 16.
- 7- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية - دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني -، دار البصائر، الجزائر، ط 2، 2009، ص46.
- 8- سيدي لخضر بن خلوف، الديوان، شرح محمد بن الحاج الغوتي بخوشة، نشر ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، ص 41.
- 9- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 239.
- 10- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات - الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا - السودان -، دار المعارف، القاهرة، ط1، دت، ج10، ص119.
- 11- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 240.
- * ابن مريم: أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الملقب بابن مريم الشريف الملبتي المديوني التلمساني منشأ و وفاة، من أشهر مؤلفاته في تراجم العلماء والسادات " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ".
12- محمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دط، دت، ص73.
- 13- أنظر: احمد يوسف، السلالة الشعرية في الجزائر -علامات الخفوت وسيماء اليتيم-، مكتبة الرثاء، الجزائر، دط، 2004، ص10.

والتقوى وكانت له بركة عظيمة ودعاء مستجاب تشد إليه الرحال في المسائل العلمية هذب النقول ونقحها وكسا علم التصوف طلاوة وبهجة⁽³¹⁾، وله شعر صوفي كثير ومنظومات علمية. وعبد الرحمن بن موسى (ت 1011) وخلف قصائد في الحث على الجهاد وفي الاستغاثة بالله ورسوله، وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البوني⁽³²⁾ (ت 1018) وله شعر كثير في الخمر، ثم نجد احمد المقرئ⁽³³⁾ صاحب "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب" (ت 1041هـ- 1631م) كان إماما عالما متفنا حافظا للفقه والنوازل، له عدة تأليف منها نظم سماه "إضاءة الدجنة" وهي منظومة في العقائد اشتملت على فوائد عديدة وجواهر فريدة مع سلامة النظم وحسن المساق⁽³⁴⁾، دون أن ننسى يحيى الشاوي⁽³⁵⁾ الذي يعد من كبار علماء القرن الحادي عشر (17م)، والذي اعتنى بعلوم النحو المنطق والتوحيد، تولى الإفتاء في المذهب المالكي كما اشتغل على تدريس العلوم منها الفقه والتفسير والنحو والتوحيد. كما نذكر محمد بن قدار الجيلاني المستغاني كان حيا سنة (1167هـ) من أهم آثاره منظومة طويلة تنيف عن أربعائة بيت، وله أيضا منظومة في التراجم، وتأليف في فن الحكمة، والقائمة طويلة وحسبي بهذا القدر في هذا المقام.

وبهذا فإن التجارب الأدبية القديمة نسبيا في الجزائر، التي نسجتها أقدام لعدد من أعلام الفكر والأدب، ما زالت في حاجة إلى عناية الباحثين والدارسين للتعريف بها وإنتاجها، ووضعها في مسار من المسارات الثقافية المختلفة المشارب والمسارب والمراجع، وهي المسارات التي جسدت ذاكرة الجزائر الثقافية والحضارية، والتي قد تظل في حكم الغياب، ما لم يتم استحضار من أنجزها من النوابع، وقد أصبح من الضروري تجاوز الدراسات التاريخية التقليدية والاتجاه بالدراسات التاريخية نحو العمل المنهجي الموضوعي المعتمد على مفهوم تاريخي تحليلي واستفساري واستنتاجي والابتعاد عن التاريخ الروائي. وهذا البحث ينصب على قضايا المجتمع وتحديد الأهداف والمجالات التي يسعى إلى تغطيتها ومعالجتها؛ هذه الأهداف التي تبعدنا عن التاريخ الكمي والإحصائي وتوجهنا نحو تاريخ نوعي وذلك حسب متطلبات المنهج التاريخي الحديث؛ أما من خلال المساهمة المنهجية الموضوعية فهي تتطلب تكوين مؤرخين قادرين على استغلال الوثائق والاستفادة منها في إعادة كتابة تاريخ الجزائر العثمانية، كتابة علمية منهجية موضوعية، إضافة إلى

- 14- أحمد يوسف، السلالة الشعرية في الجزائر - علامات الحفوت و سيماء اليتيم -، ص 11.
- 15- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 63.
- 16- الأعمال مفصلة في كتاب أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 64.
- 17- مختار حبار، الخطاب الأدبي القديم في الجزائر - دراسة بليوغرافيا، ص 98.
- 18- محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومثته في التحدث بفضل ربي ونعمته - حياة أبي راس النائية والعلمية-، ص 179.
- 19- مختار حبار، الخطاب الأدبي القديم في الجزائر - دراسة بليوغرافيا- ص 99.
- 21- محمد بن ميمون، التحفة المرضية، مخطوط 112، والقصيدة في سبعين بيت، نقلا عن: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 200.
- 21- الغبريني، عنوان الدراية فحين عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل النويض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص 265.
- 22- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتب، طرابلس، ط2، 2000، ص 332.
- 23- ديوان أشعار جزائرية، ص 30.
- 24- عادل نويض، معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ- 1980م، ص 318.
- 25- ابن زاكور، نشر أزهير البستان- فحين أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 42.
- 26- عادل نويض، معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص 318.
- 27- ابن عمار، نخلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، دت، ص 27.
- 28- المصدر نفسه، ص 35.
- 29- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007، ط خاصة، ج 1، ص 187. أنظر أيضا تاريخ الجزائر الثقافي لأبو القاسم سعد الله ج 2/ ص 399.
- 30- المرجع نفسه، ص 115.
- 31- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، ص 433.
- 32- محمد بن عبد الرحمن البوني المكي شاعر وأديب لد بمكة أصله من بونة ولاية عنابة، رحلت عائلته إلى الحجاز واستقر بمكة المكرمة، فآخذ عن علمائها والعلماء الوافدين إليها. حفظ أشعار العرب، علت شهرته وراسل العلماء والكتاب الى ان توفي.
- 33- هو أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش، أبو العباس المقري التلمساني، مؤرخ، أديب، حافظ، عارف بعلم الكلام والتفسير والحديث، ولد بتلمسان وبها نشأ، أقر له بعض العلماء بقوة الحجّة والنباهة، من آثاره " نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب " و " روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين: مراکش وفاس " و " أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض " و " النفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية " و " فتح المتعال في وصف النعال " و " خلاصة فتح المتعال والنفحات العنبرية " وهي عبارة عن أرجوزة تحتوي على 190 بيتا، وغيرها من الأعمال التي أثار بها الثقافة العربية والإسلامية. أنظر بعض الأخبار عنه في كتاب " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " لأحمد بابا التنبكتي
- 34- محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح: محمد محجي واحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/ 1977م، ج 1، ص 293.
- 35- أنظر دراسة أبو القاسم سعد الله في كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي ج 2/".